

أسس التعايش السلمي في الإسلام ومرتكزاته

د. عبدالله بن عبدالعزيز المصلح

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وبعد: فإن الله خلق الخلق من أصل واحد فقال تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير} (الحجرات: ١٣)، وقال ﷺ: "يا أيها الناس، ألا إن ربكم عز وجل واحد، ألا وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ألا لا فضل لأسود على أحمر إلا بالتقوى، ألا قد بلغت؟، قالوا: نعم قال: ليبليغ الشاهد الغائب" ^(١) وجعل الأصل في العلاقة بين الناس التعارف والمحبة والإخاء والسلام وبذلك تكون الحروب والفتن أمرا عارضا غير أصلي، وإنما شرع القتال دفاعا عن النفوس والأديان عامة حتى عند غير المسلمين لقوله تعالى: {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا} (الحج: ٤٠)، وقال تعالى: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين} (البقرة: ١٩٠)، وقال تعالى: {أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير} (الحج: ٣٩) ومع أن الخلاف بين البشرية أمر لا بد منه فقد جعل الإسلام للحرب قوانين تحكمها فلا إفساد للحرث والنسل ولا قتل لغير المقاتل من الشيوخ والنساء والأطفال، ومع كل ذلك يحرم على المسلم الغدر والخيانة.

قال تعالى: {وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين، ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون} (الأنفال: ٥٨ - ٥٩)، وفي الصفحات التالية سأتناول أسس التعايش السلمي وضوابطه في الإسلام.

^(١) أخرج أحمد في المسند (٥ / ٤١١)، وانظر: الفتح الرباني (١٢ / ٢٢٧)، وشعب الإيمان للبيهقي (٤ / ٢٨٩) ط دار الكتب العلمية - بيروت.

تعريف التعايش السلمي:

العيش: هو الحياة، يقول الجوهري: كل واحد من المعاش والمعيش يصلح أن يكون مصدرا وأن يكون اسما.
والعيش، والمعيشة: ما يكون به الحياة، ومنه قوله تعالى: {وجعلنا لكم فيها معاش} (الأعراف: ١٠)، أي أن الأرض فيها معاش الخلق، والعيش الخبز والزرع بلغة الحجاز.

والتعايش: المعيشة، يقول: عاش معه كقولهم عاشره، والغالب في التعايش أن يكون بألفة ومودة^(٢)، وبهذا يتضح لنا أن من لازم التعايش السلم، فما هو السلم؟
السلم: السلامة والسلام: وهو في الأصل البراءة من العيب والآفات، السلام من أسماء الله تعالى^(٣)، وسمي الله تعالى بذلك لسلامته من النقص والعيب والفناء.
واختار بعض أهل اللغة أنه من يسلم منه، واعترض على المعنى الأول بل شنع عن قائله ورأى أن المعنى: أنه الذي سلم الثقلان من جوره وظلمه فهو في جميع أفعاله سلام لا حيف ولا ظلم ولا تفاوت ولا اختلال^(٤)، ومنه تقول: سلم من الآفة سلامة وسلاما إذا نجا^(٥)، والمسالمة: المصالحة^(٦) ومنه قول النبي ﷺ: (أسلم سالمها الله)^(٧)، والسلم: الصلح، والسلم: المسالم تقول: أنا مسالم لمن سالمني، وقد أمر الله المؤمنين بالدخول في السلم كافة فقال: {يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة} (البقرة: ٢٠٨) أمرهم أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك^(٨).

(٢) تاج العروس للزبيدي (١٧ / ٢٨٢ - ٢٨٦).

(٣) المصدر السابق ٣٢ / ٣٧١ - ٣٧٩.

(٤) المصدر السابق ٣٢ / ٣٨٤، ولا شك أن كلا من المعنيين صحيح، وإنما المقصود المعنى الاشتقاقي.

(٥) المرجع السابق.

(٦) المرجع السابق ٣٢ / ٣٧٦.

(٧) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رقم ٧ / ١٧٧.

(٨) تفسير ابن كثير ١ / ٣٧١.

وسمى الله تعالى الجنة دار السلام فقال تعالى: {والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} (يونس: ٢٥) لخلوها من الآفات والتناقض والنكبات^(٩) وتحية المسلمين السلام والتسليم، وهو مصدر سلمت، ومعناه: الدعاء للإنسان بأن يسلم من الآفات في دينه ونفسه، وتأويله: التخليص^(١٠)، والسلام كاف في إعطاء صاحبه الأمان، فلو سلم غير المسلم على المسلم لزمه الكف عنه حتى ولو كان ذلك أثناء القتال لقوله تعالى: {ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً} (النساء: ٩٤)، وذلك لأن الإسلام معناه إظهار قبول ما أتى به رسول الله ﷺ وهو كاف في حقن الدم وحفظ العرض والمال حتى ولو كان منافقاً، قال تعالى: {قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم} (الحجرات: ١٤) قال تعالى: {ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين} (يونس: ٩٩)، وقال تعالى: {عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم، لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون} (الممتحنة: ٧ - ٩)

مرتكزات وأسس التعايش السلمي:

العالم إما أن يعيش في ظل شهادة الإسلام عليه وعندها نرى كيف يكون التعايش السلمي في الأرض {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي} (البقرة: ٢٥٦)، قال تعالى: {هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير} (التغابن: ٢)، وقال تعالى: {ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم} (هود: ١١٨ - ١١٩) أي للاختلاف، وقيل للرحمة، وقيل للاختلاف والرحمة، وقد يشار (بذلك) إلى شيئين متضادين كقوله تعالى: {لا فإرض ولا بكر} (البقرة: ٦٨)، قال القرطبي عوان بين ذلك ولم يقل بين

(٩) ابن كثير ٢ / ٦٤١.

(١٠) التاج ٣٢ / ٣٨٥.

ذنيك، وهذا أحسن الأقوال لأنه يعم^(١١)، وقال تعالى: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن} (العنكبوت: ٤٦). لأن الله حكم أن البشرية سيظل منها كافر ومنها مؤمن وأنهم يعيشون على رقعة أرضية واحدة فلا بد من نظام يضمن لهم التعايش، وعلى هذا يكون السلم هو الأصل في العلاقات بين الناس، والحرب طارئة وهو في ظل الإسلام موجود بين المسلمين بعضهم البعض فقد قال ﷺ: (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)^(١٢)، وحرام الاعتداء على الدين وعلى النفوس والأعراض والأموال^(١٣) حتى يعيش الفرد في أمن وأمان^(١٤)، وليس هذا قاصرا على المسلمين، بل على كل من يعيش بين ظهرانيتهم من المعاهدين والمؤمنين. وقد جرب الجميع ذلك، فلم يشهد التاريخ أن المسلمين أجبروا أحدا على ترك دينه، بل أوجب الإسلام حماية المعاهد فقد قال ﷺ: (ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقتة أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة)^(١٥).

ولما فتحت الشام وجاء الخليفة عمر لتوقيع معاهدة الاستسلام لم يدخل الكنائس ولم يصل فيها، ولما سئل عن ذلك قال أخشى أن يحتج المسلمون بذلك في تحويلها إلى مساجد! ولكل ذلك ظل اليهود والنصارى يعيشون في جزيرة العرب وفي الشام ومصر واليمن والمغرب، وإلى اليوم وهم ينعمون بالأخوة الإنسانية والوطنية، وقد شهدوا أنفسهم بذلك، بينما نجد العكس في الأندلس^(١٦) وأوروبا والبلقان وروسيا والصين، فقد أبعد المسلمون إبادة تامة وأجبروا حتى على تغيير أسمائهم ونقلوا من أماكنهم إلى أماكن أخرى، ولا يزال الغرب في هذا العصر الذي يتشدق فيه بالحرية يصف الإسلام وأهله بالإرهاب، ويضايقهم في كل مكان، وينتهك خصوصياتهم في

(١١) تفسير الجامع للقرطبي ٩ / ١١٥ .

(١٢) المصدر السابق.

(١٣) انظر الموافقات للشاطبي.

(١٤) السلام العالمي للسيد ص ٣٨.

(١٥) رواه أبوداود ٣ / ٤٣٧ رقم ٣٠٥٢، والبيهقي ٩ / ٢٠٥.

(١٦) ولما أجبر النصارى المسلمين واليهود في الأندلس على التصبر وترك دينهم وتغيير أسمائهم لجأ كثير منهم إلى المغرب والشمال الإفريقي مسلمون ويهود، وآوى المسلمون هناك اليهود كما فعلوا لإخوانهم من المسلمين، وظلوا فيها محميين وإلى اليوم.

الحجاب ونحوه، وهذه مقارنة سريعة للتعايش السلمي الذي يؤمن به المسلم ويفعله، والتعايش في ظل سيطرة غير المسلمين كما سجله التاريخ وشهد به القاصي والداني. وكان ﷺ هو القدوة الأولى في حسن التعامل مع الناس ولو كانوا مخالفين له في المعتقد، إذ سمح لوفد نصارى نجران المؤلف من نحو ستين شخصا بدخول مسجده الشريف، وأجلسهم فيه فترة طويلة، وعندما حان وقت صلاتهم قاموا متوجهين إلى المشرق ليصلوا صلاتهم، فقام المسلمون لمنعهم عن ذلك، إلا أن الرسول ﷺ نهاهم عن ذلك وتركهم يصلون في طمأنينة^(١٧)، كما زار جاره اليهودي المريض فعن أنس - أن غلاما يهود كان يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعودده فقال: (أسلم، فأسلم)^(١٨)، وحتى يكون التعايش مع المخالف منهجا واضحا أقر الإسلام الصلح مع الكافرين فقد قال ﷺ عن حلف الفضول: (لو دعيت لمثله لأجبت)، وعقد مع اليهود عهدا عرف بوثيقة المدينة كما هي مبينة في سيرة ابن هشام^(١٩) ومن أهم ما تضمنته هذه الوثيقة أن الحرية الدينية مكفولة للجميع وأن الجميع يأمن بعضهم بعضا بل يتعاونون على كل من اعتدى على أحد منهم من خارج هذا الوطن المشترك بين المسلمين واليهود وهو المدينة المنورة.

كما عاهد ﷺ مشركي العرب في صلح الحديبية عهدا تضمن إيقاف الحرب عشر سنين، وتضمنت أمورا كانت ثقيلة على المسلمين لما رأوا فيها من الهضم كالرجوع دون رؤية البيت الحرام وهم محرمون، وإرجاعهم من أتاها مسلما إلى مكة، لكنهم قبلوا ذلك من أجل الصلح^(٢٠) (والصلح خير).

كما صالح إمارات وقبائل في حدود الشام كأهل أيلات وأهل أذرح، وصالح الأكيدر صاحب دومة الجندل^(٢١).

(١٧) انظر: السيرة النبوية ١ / ٥٧٤.

(١٨) انظر: صحيح البخاري ٤ / ٤، وانظر فتح الباري ١٠ / ١١٩ رقم ٥٦٥٧.

(١٩) السيرة ٢ / ٥٠١ - ٥٠٤.

(٢٠) سيرة ابن هشام ٢ / ٣١٧ ط مكتبة الحلبي عام ١٩٥٥م، وقد اختلف العلماء في دخول الكفار المساجد على ثلاثة أقوال:

١ - المنع مطلقا، ٢ - المنع من دخول المسجد الحرام خاصة، ٣ - منع المشركين دون أهل الكتاب من المسجد الحرام، انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨ / ١٠٤.

(٢١) انظر: السياسة والمجتمع في العهد النبوي لإبراهيم حركات ص ٣٢٠، ط: دار الاتفاق الجديدة، المغرب عام ١٩٨٩م.

كما راسل ﷺ ملوك الأرض في زمنه يعرض عليهم الإسلام والتعايش السلمي والرحمة العالمية {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} (الأنبياء: ١٠٧)، وقال تعالى: {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا} (سبأ: ٢٨) وكانت لتلك الرسائل آثارها الإيجابية إذ إن منهم من آمن وتابع كما وقع من ملوك حمير وعمان وملك الحبشة النجاشي - رضي الله عنه - ومنهم من هادن كالمقوقس ملك مصر، ومنهم من عاند وكابر كملوك الفساسنة وكسرى^(٢٢).

في ضوء ما سبق يمكن أن أحدد أهم أسس هذا التعايش في نقاط هي:

- ١ - كرامة الإنسان واحترامه كإنسان بغض النظر عن دينه ولونه وجنسه.
- ٢ - العدل: إن الإسلام يقيم الحياة بين الناس على أسس العدل، ليأخذ كل مستحق حقه ومستحقه من رزق، بعيدا عن لونه أو جنسه أو أرضه من تلك الاعتبار القاصرة بل حتى دون النظر إلى دينه، ومن هنا لما قال إبراهيم عليه السلام: {رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر} رد الله عليه بقوله: {ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير} (البقرة: ١٢٦) أي أن الرزق للجميع ومن خلق لابد أن يرزق، ومن هنا عرف السلام بأنه: الذي سلم الثقلان من جور وظلمه فهو في جميع أفعاله سلام لا حيف ولا ظلم ولا تفاوت ولا اختلال، وجعل هذا العدل بين الأفراد والجماعات والدول بخلاف من يتشدد بذلك، ففي ١٣ - ١٦ من سبتمبر من عام ١٩٨١ م عقد في نيويورك مؤتمر عالمي سمي بيوم السلام العالمي دعا إلى نزع السلاح لما يمثله من ضرورة لتحقيق السلم العالمي، لكن المتتبع يحق له أن يسأل هل هذا النزع يشمل الولايات المتحدة الأمريكية التي تقتل الحرث والنسل في العراق والصومال وأفغانستان؟ وهل هو لنزع أسلحة دولة اليهود التي تقتل النساء والأطفال؟

أم هو نزع أسلحة المسلمين حتى لا يقاوموا أي اعتداء !!

والعدل: في الأصل مصدر سمي به فوضع موضع العادل، ومعناه: الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم^(٢٣).

٣ - الأمن: فلا بد أن يأمن كل مسالم على نفسه وأسرته وعرضه وماله ومن الأمن على الفكر ما دامت حرية لا تتعدى إلى حريات الآخرين.

٤ - الوفاء بالعهود والمواثيق: إن الوفاء بالعهود من أسباب الأمن حتى في حال الحرب ولذا قال تعالى: {وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين} (الأنفال: ٥٨). ومنه حرام الاعتداء على الرسل.

٥ - توفير العيش الكريم لكل إنسان، ولذلك أوجب الله حقوقاً في المال كالزكاة، وحرم الربا والميسر والاحتكار، وحث على الإنفاق دون تحديد.

٦ - التعاون التجاري والمعرفي بين الناس قال ﷺ: (ثلاث لا يمنعن: الماء والكأ والنار)^(٢٤)، ومن التعاون والتعايش التبادل التجاري وقد نظمته الإسلام بين الناس مسلمين وغير مسلمين بما لا يعود على المسلمين بالضرر. أما ما عدا ذلك فكله مشروع بل مطلوب لأن في كل كبد رطبة أجرا، ولذا بذل المسلمون ما لديهم للآخرين من تجارات ومعارف علمية، وهي التي أسهمت في نقل الحضارة العلمية من الأندلس وصقلية والشام وبغداد وغيرها من حواضر المسلمين إلى أوروبا والصين وغيرها دون احتكار أو منع كما تفعل الحضارة المادية الغربية اليوم!

إذا كانت تلك هي نظرتنا إلى التعاون والتعايش، فما هي نظرة الآخر إليه؟ إن نظرة الآخرين تقوم على النزاع والصراع والخصام، ومن هنا فإنهم يصنعون الأحداث من أجل بيع السلاح والدواء، ويحتكرون المعرفة بما في ذلك الغذاء حتى ترتفع الأسعار ولو مات الناس جوعاً في مختلف أنحاء الأرض، كما أنهم يحتكرون الدواء!!

٧ - نشر الدين الحق والسماح له من أجل إخراج الناس من عبادة الهوى إلى عبادة خالق السماوات والأرض المستحق للعبادة وحده.

(٢٣) النهاية في غريب الحديث ٣ / ١٩٠.

(٢٤) سنن ابن ماجه ٢ / ٨٣٦، رقم ٢٤٧٣، والمعجم الكبير للطبراني ١٥ / ٤٣٧.

٨ - البعد عن الخيلاء والتكبر على الناس (ولا تمش في الأرض مرحاً) {الإسراء: ٣٧}، {لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم} (الحجرات: ١١).

٩ - حماية الضعفاء في الأرض {وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين} (النساء: ٧٥).

١٠ - أن الله جعل في الأرض أقوات البشرية كلها وأن كل من بذل الأسباب وجد نتائجهما، وأن اتباع أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه له أثره الفاعل في جوانب حياة الأمة المختلفة من اقتصاد وسياسة كما قال تعالى: {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون} (الأعراف: ٩٦)، وقال تعالى: {وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون} (النحل: ١١٢) وقال تعالى: {الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف} (قريش: ٤)، وقال جل من قائل: {أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون} (العنكبوت: ٦٧).

١١ - الموقف الموحد من الظلم ونشر الفساد في الأرض (التسلح، الحروب المجاعات، الأمراض ... الاستبداد، احتلال أراضي الآخرين، نهب الثروات، التدخل في الشؤون الخاصة من سياسة وتربية وغيرها).

١٢ - استدعاء التاريخ كشاهد على الماضي ونظرة للواقع لتظهر معاملة المسلمين مع اليهود والنصارى.

ثم نوازن بين تعامل المسلمين مع غيرهم بـ تعامل أهل الكتابين مع المسلمين في حال الغلبة والانتصار وفي حال الهزيمة والضعف، ولعل في هذا أبلغ الأدلة.

ولا محالة فإن الدارس المنصف سيخرج بنتيجة مشرفة مبهرة بالنسبة لنا، وربما خجل من إعلان نتيجة بحثه بالنسبة لغيرنا. وحتى لا يكون هذا ادعاءً فإنني سأذكر بعض الأمثلة وربما كانت أكثر بالنسبة لنا، لأننا - اليوم متهمون ومتهم ديننا - !!

أ - لقد استسلمت مدن كثيرة في الشام وفي الشرق الإسلامي دون قتال، لأن أهلها كانوا يفضلون حكم المسلمين، لما وجدوا فيه من عدل على حكام بلادهم

وأهل دينهم، لما مارسوا عليهم من ظلم، ومن تلك المدن الكثيرة: مدينة حمص حيث كان أبو عبيدة عامر بن الجراح يأخذ الخراج من أهلها فلما همّ بالتوجه إلى اليرموك بأمر من خليفة المسلمين أرجع إلى أهل الحمص خراجهم الذي أخذه منهم وقال لهم: قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم على أمركم، فبكى أهل حمص وطلبوا ببقاء حكم المسلمين عليهم وقالوا: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم، ونهض اليهود فقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد فأغلقوا الأبواب وحرسوها !!

ب - ولما دخل الصليبيون الكاثوليك بيت المقدس في الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٩٢ هـ قتلوا في داخل المسجدين (مسجد الصخرة، ومسجد عمر رضي الله عنه) سبعين ألف مسلم، عدا من رموهم من أعالي البنايات، بشهادة مؤرخين صليبيين ونصارى شرقيين مثل فوشيه السارترى الذي يحدث - بافتخار وغبطة - عن هذه الحملة الصليبية، وقال إن الجنود الصليبيين كانوا ينتزعون الرضيع من حضن أمه ويسحقون رأسه بضربه بالأعمدة والجدران حتى يهلك، وسجل تاريخهم في هذا الصدد تفاصيل تقشع منها الأبدان. من ذلك ما ذكر المؤرخ الأوروبي ديورانت في قصة الحضارة، ومنه أن الصليبيين جمعوا اليهود وأدخلوهم في كنيس لهم فأحرقوه عليهم. وحتى تتضح الصورة فلننظر ما فعله القائد صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله تعالى - حين فتح بيت المقدس عقب معركة حطين بثلاثة أشهر وذلك عام ٥٨٣ هـ، لقد عفا عنهم جميعا ولم يأخذهم بتلك الجريرة.

ج - في الحملة الصليبية الرابعة التي أخطأت طريقها ودخلت إلى بيزنطة وكان أهلها يدينون بالمذهب الأرثوذكسي قام الصليبيون الكاثوليك بقتل أهلها وهتك أعراضهم وإهانة دينهم حتى أنهم عمدوا إلى أكبر كنيسة في القسطنطينية وهي كنيسة القديسة آيا صوفيا، وشربوا فيها الخمر وفعلوا الفواحش والمنكرات وأقاموا امرأة عارية في قلب الكنيسة إهانة لدين الأرثوذكس وقتلوا عددا كبيرا من الرهبان

والقساوسة ونهبوا الثروات العظيمة والقناديل الذهبية التي كانت تملأ هذه الكنيسة وذهبوا بها معهم إلى روما.

لكن انظر: ماذا فعل القائد المسلم محمد الفاتح العثماني حين دخل القسطنطينية فاتحاً في القرن التاسع الهجري ودخل عاصمة الأرثوذكس آنذاك بعد حصار طويل احتّمى أهلها بكنيسة القديسة آيا صوفيا وأغلقوا عليهم الأبواب وقالوا: إن كان أهل ديننا - يعنون النصارى الكاثوليك - قد فعلوا بنا ما فعلوا في الحملة الصليبية الرابعة لاختلاف مذهبنا عن مذهبهم مع توحد ديننا فماذا سيفعل بنا المسلمون وديننا يختلف عن دينهم بالكلية؟! فأمر السلطان محمد بفتح أبواب الكنيسة ورأى الناس خائفين يجأرون إلى الله تعالى بالدعاء، فدخل عليهم الكنيسة وسجد فيها شكراً لله تعالى على ما منّ به عليه من الفتح المبين، ثم أعلن العفو العام عن أهلها، وأسلم من جراء هذا التصرف عدد كبير من القسس والرهبان، ثم أصدر أمره بتعيين أحد رهبانهم، مسؤولاً عند السلطان المسلم عن زيجاتهم وخلافاتهم وفض منازعتهم حتى قال ذلك الراهب: لقد أكرمني السلطان بما لم يكرمني به الملوك من أهل ديني. ومن عجيب ما نقل من عدل المسلمين مع أعدائهم ما حصل في فتح سمرقند على يد القائد المغوار قتيبة بن مسلم الباهلي ولن تجد لهذه الصورة المشرفة مثيلاً في التاريخ إلا عند المسلمين، فحين فتح المسلمون سمرقند واستقروا فيها ونظموا شؤونها وتقلدوا أمرها وأقاموا فيها حكم الإسلام، فقدم وفد من كبار سمرقند إلى خليفة المسلمين في الشام عمر بن عبد العزيز (رحمه الله تعالى) وادعوا أن المسلمين فتحوا سمرقند عنوة دون سابق إنذار أو تخيير كما تقتضيه قواعد الجهاد في الشريعة الإسلامية، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله على تلك الديار يأمره بأن ينصب لهم قاضياً ينظر في مظلمتهم فجلس قادة الجيش المسلم مع رؤساء أهل سمرقند وكبرائهم إلى التحاكم في مجلس القاضي (جميع بن حاضر) الذي حكم بخروج الجيش المسلم من سمرقند ومن ثم دعوة أهلها أو منابذتهم على سواء، فلما هم المسلمون بالخروج تنفيذاً لحكم القاضي احتج أهل سمرقند، وطالبوا بحكم المسلمين عليهم، لأنهم ذاقوا عدلهم ورحمتهم بهم ودخل كثير منهم في الإسلام.

- ١٣ - حماية غير المسلمين في المجتمع المسلم من أي عدوان خارجي ومثال ذلك:
- الحماية الداخلية لهم، وبلغت العناية بها أن سميت شرعا ذمة الله وسمي أصحابها أهل ذمة، وهي كلمة مدح.
- إعطاؤهم الحريات العامة في تدينهم ومطاعهم ومشاربهم، ولنتذكر قول أمير المؤمنين عمر: "ما أنصفناك، إن كنا أخذنا منك الجزية في شببتك ثم ضيعناك في كبرك، قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه".
- وأرى من المناسب لهذا الموضوع أن نختمه بما أورده سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: {والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} (العصر)، حيث قال: فالأمة عندهم سواء، والناس عندهم سواء، الناس كلهم من آدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير} (الحجرات: ١٣)، وقد قال عمر بن الخطاب لعمر بن العاص - رضي الله عنهما - عامل مصر وقد ضرب ابنه مصريا وافتخر بأبائه قائلا: خذها من ابن الأكرمين. فاقترض منه عمر، وقال كلمته الشهيرة: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا^(٢٥)، وقال علي بن أبي طالب: واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللفظ بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتتم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق^(٢٦)، وجاء في معاهدة الخليفة الفاروق مع أهل القدس النصاري: هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار منهم أحد^(٢٧).

(٢٥) فقه عمر بن الخطاب ٢ / ٣٣٣، رقم ٩٧، تأليف الدكتور رويحي بن راجح الرحيلي.

(٢٦) كما في نهج البلاغة ص ٤٢٧ تحقيق صبحي صالح.

(٢٧) انظر: تاريخ الرسل والملوك ٢ / ٤٤٩.

كما كتب الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز إلى أحد ولاته كتابا جاء فيه: أما بعد: فانظر أهل الذمة فارق بهم، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليه^(٢٨). ذلك ما فعله المسلمون قبل ألف وأربعمائة عام واستمروا عليه وبذلك عاش في أكنافهم ومعهم إخوانهم في الإنسانية، يكلؤونهم بالرعاية والحماية، ويدافعون عنهم، ويسمحون لهم بما سمح لهم به دينهم.

فماذا فعل الغرب في ماضيه وحاضره، أليس هو الذي منع المسلمات من حجابهن، وأوجب عليهن العري والتكشيف المخالف لجميع الأديان والفطر السليمة؟! ومنعهن من دخول المدارس والبرلمانات والوظائف وهن متسترات، مع أنها حريات شخصية ودينية؟ فمن الذي يمنع التعايش السلمي إذاً، ومن الذي يقبله؟

فلم ييخل هؤلاء بما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد، ولم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسبا ولونا ووطنا، بل عدلوا مع نفوسهم وغيرهم وهم ليسوا مخيرين في ذلك، بل هو أمر واجب عليهم لا خيار لهم فيه.

في ظل حكم هؤلاء وتحت رغبتهم استطاعت الأمم والشعوب حتى المضطهدة منها في القديم أن تتال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب، وأن تسهم في بناء العالم الجديد وبذل كل سعيه في خدمة الدين والعلم والناس.

يقول سيد قطب - رحمه الله - : "إن الإنسان جسم وروح، وهو ذو قلب وعقل وعواطف وجوارح، لا يسعد ولا يفلح ولا يرقى رقىا متزنا عادلا حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نموا متناسبا لاثقا بها، ويتغذى غذاء صالحا، ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة ألبتة إلا إذا ساد وسط ديني خلقي عقلي جسدي يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنساني. وقد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك إلا إذا مكنت قيادة الحياة وإدارة دفة المدنية بين الذين يؤمنون بالروح والمادة، ويكونون أمثلة كاملة في الحياة الدينية والخلقية، وأصحاب عقول سليمة راجحة، وعلوم صحيحة نافعة".

إلى أن يقول تحت عنوان: "دور الخلافة الراشدة مثل المدنية الصالحة": وكذلك كان، فلم نعرف دورا من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر في جميع هذه النواحي من

(٢٨) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٥ / ٣٨٠.

هذا الدور دور الخلافة الراشدة، فقد تعاونت فيه قوة الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المادية في تنشئة الإنسان الكامل، وفي ظهور المدنية الصالحة .. كانت حكومة من أكبر حكومات العالم، وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة في عصرها، تسود فيها المثل الخلقية العليا، وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة في حياة الناس ونظام الحكم، وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة، ويسير الرقي الخلقى والروحي اتساع الفتوح واحتفال الحضارة، فتقل الجنايات، وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها ورغم دواعيها وأسبابها، وتحسن علاقة الفرد بالفرد، والفرد بالجماعة، وعلاقة الجماعة بالفرد^(٢٩).

الخاتمة:

لا يخفى أن الأصل في البشرية أنها كلها من أصل واحد (كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب)^(٣٠) وهذا يقتضي منهم الرحمة والتعاون، لأن الأصل الغالب في التعايش أن يكون بألفة ومودة، وسمى الله تعالى نفسه السلام لأنه الذي سلم الثقلان من جوره وظلمه، فهو في جميع أفعاله سلام لا حيف ولا ظلم ولا تفاوت ولا اختلال، كما أن تحية المسلمين السلام، وأن الأصل في العلاقات السلم، والحرب حالة طارئة، ولكن نظرة لواقع الأرض اليوم نجد البشرية على خلاف ذلك، وهي مما يجعلها في حاجة إلى ميثاق شرف ينشر ليدرسه العالم، ويمنع الاعتداء على الآخرين لأعراقهم أو أجناسهم أو أديانهم، وتوفير الغذاء والدواء للجميع، وإتاحة فرص العمل للجميع، ونقل التكنولوجيا وتوفيرها من أجل إسعاد البشرية، مع ملاحظة أن أغلب ذلك الظلم الواقع في الأرض اليوم إنما هو على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

كما يلزم المسلمين أن يعرفوا بدينهم وما فيه من رحمة، وكيف تعامل مع مخالفه في حال السلم والحرب مما يكفي لمن اطلع عليه أن يعلم أنه دين الحق. وفقنا الله لاتباع الحق وجعلنا هداة مهدين (وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم).



^(٢٩) في ظلال القرآن لسيد قطب ١٣٨٦ هـ (٨ / ٩٥).

^(٣٠) صحيح الجامع الصغير رقم ٤٥٦٨.